الفصل السادس

العلاقات مع بلدان المشرق

1- القرامطة ــ الاسرة الجنابية.

2- الحمدانيون.

3- الدولة البويهية .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

العلاقات مع بلدان المشرق

يجد الباحث في تاريخ الخلافة الفاطمية، خير شاهد على تداخل أحداث تاريخ الوطن العربي وتفاعلها، فالدعوة الإسماعيلية قد تكون تأصلت أولاً في العراق ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد الشام، ومن هناك انتقلت قيادتها إلى مصر، فالشمال الأفريقي، وكنا قد رأينا أخبار تأسيس الخلافة الفاطمية وبسطها سيطرتها على مختلف أرجاء المغرب، ومن المغرب حاول الفاطميون الاستيلاء على مصر، ولم يتحقق لهم النجاح إلاّ أيام المعز، وهذا ما سوف نتناوله في هذا الفصل، وبعد الاستيلاء على مصر حاول الفاطميون السيطرة على بلاد الشام، وكذلك على الحجاز، ولسوف نفصّل كيف جرت الأمور في الشام بعد مصر، وبصرف النظر عن بعض الانتكاسات العسكرية التي واجهتها القوات التي صحبت جوهرا، لاسيما ما أرسله للاستيلاء على بلاد الشام، لابد من الإقرار أن منابر مصر والشام الجنوبي، بما في ذلك دمشق خطبت للمعز لدين الله الفاطمي، وهكذا كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الذي تبعت فيه

obeikandl.com

مصر والشام الجنوبي رسمياً لحاكم مقره في أحواز القيروان في تونس، كما أنها كانت المرة الأولى في التاريخ الذي تمكنت فيه قوات قبلية مغربية زحفت من إفريقية، من احتلال مصر والشام الجنوبي.

وصحيح أن الاحتلال الفاطمي لم يكن احتلالاً عسكرياً محضاً، بل كان عملاً دوافعه المعلنة عقائدية، أي أنه كان مستوفياً لشروط الاستمرار مع إمكانية النجاح الدائم، لكن هذا النجاح الدائم لم يتحقق لا لأسباب عسكرية، بل للأسباب العقائدية، فقد كانت العقيدة الإسماعيلية ارتدادية لا تمتلك أسباب القبول العام، شابهت في ذلك من بعض الجوانب الدعوة العباسية في بداياتها، لكن الذي حدث مع الدعوة العباسية هو أن خلفاء بني العباس نجحوا إلى ابعد الحدود في سياستهم الدينية، فقمعوا التطرف، وسايروا التيارات العامة المرتبطة بوضوح بالقرآن والسنة بلا تأويل، واحتضن خلفاء بني العباس رجال الدين ورعوهم، لكنهم لم يتدخلوا بشكل مباشر في نشاطاتهم وآرائهم، وصحيح أن أبا جعفر المنصور قد أعلن عن نفسه خليفة الله في الأرض، لكن ذلك كان من باب السلطة لا من باب التشريع في حين جعلت الدعوة الإسماعيلية من الإمام لديها مصدر التشريع والتأويل، ومن هذا الباب عرفت الدعوة الإسماعيلية؛ باسم «التعليمية».

وفي أيام المعز لدين الله ـ كما كان الحال من قبل ـ انتشرت أعداد كبيرة من الذين آمنوا بالعقيدة الإسماعيلية في بعض أجزاء بلاد الشام والعراق وبلدان المشرق.

وكانت هناك أيضاً دولة القرامطة في الأحساء والبحرين، وكانت ما تزال يانعة لديها طاقاتها العسكرية الفعالة، وكانت الخلافة الفاطمية تأمل أنها ما أن تستولي على مصر والشام، حتى ستعلن القوى الإسماعيلية

والقرمطية والشيعية الولاء لها، مما كان سيقود إلى دمار الخلافة العباسية، لاسيما أن هذه الخلافة كانت تحت حكم أسرة آل بوية الشيعية.

وحين تحدث ابن سعيد عن القاهرة قال: «هذه مدينة اسمها أعظم منها، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته، لأنها مدينة من بناء المعز أعظم خلفاء العبيديين، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط، وخطب له في البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة، وفي مكة وفي المدينة وبلاد اليمن وما جاورها، وعلت كلمته.

وسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر»[1]

وفي الحقيقة إذا أردنا الإسهاب في الحديث عن إخفاق المشروع الفاطمي، وتوقفه عند جنوب الشام، ونجاحه السياسي المحدود، وإخفاقه العقائدي الكامل، فإن هذا يحتاج إلى مكان رحب، قد لا يقل عن حجم أطروحة، وقد يرى بعضهم في ذلك خروجاً عن الإطار المرسوم لهذه الرسالة، ولهذا تكفي الإشارات، مع زيادة الاهتمام بشؤون مصر وجنوب الشام في أواخر العصر الإخشيدي، لاسيما وأن مصر وجنوب الشام، كانا يدينان بالطاعة للإخشيديين.

ولا يعنينا البحث في تاريخ الدولة الإخشيدية[2]، لكن حاولت الخلافة الفاطمية الاستيلاء على مصر مع تأسيس حكم الأسرة الإخشيدية على يد محمد طغج بن جف، الإخشيد، وأخفق الفاطميون في مسعاهم، وانشغل القائم الفاطمي بثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ومع هذا لم يهمل شأن

---

(١) ابن سعيد النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ط. القاهرة ١٩٧ ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) خير من كتب عنها الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف كتاباً بعنوان «مصرفي عصر الأخشيديين» ط. القاهرة ١٩٨٩.

مصر، وراسل الإخشيد، وحاول كسب مودته، وكتب إليه رسالة ليقرأها أمام الناس، وأرفقها برقعة بخط يده قال فيها: «قد خاطبتك أعزك الله في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين، وما جرى به الرسم في سياسة أنصار يستجلبون، وضمنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتّابي وذوي المكانة عندي، وأرجو أن تزدك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلي إليك وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني، واحتوى عليه ملكي، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي لأنك قد استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون إحسانك، ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك، ويخفرون ذمتك، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة، وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك، وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك، ويضيع حسن سعيك، وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كرّه إليك العدول عنهم، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق، ولزوم الصدق فإنني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك، تسكن إليه في أمرك، وتعول عليه بمثل ذلك، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطي لك، وقبول الميسور منك، إنما هو الرغبة فيك، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته، والله يريك حسن الاختيار في جميع أمرك، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[1].

وتخلص الأخشيد من الإحراج بادعاء أنه لا يقرأ ولا يكتب، وقال لرسول القائم بأنه سيتدبر الأمر فيما بعد، وسيسلك مع القائم «من حسن الموالاة ما لم يكن غيره يسلكه»[2].

---

(١) ابن سعيد المغرب في حلى المغرب ـ السفر الرابع ط. ليدن ١٨٩٩، ص ٢٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ ـ ٢٧.

ويبدو أن الخلافة الفاطمية قد اقتنعت بتأجيل موضوع مصر، نظراً لمشاغلها المغربية، كما أن الدولة الأخشيدية تغاضت بعض الشيء عن النشاط الإسماعيلي في مصر وعبرها، لأن الخلافة الفاطمية أعلنت عن مصر دار هجرة، وهكذا أخذ بعض الدعاة والشخصيات الإسماعيلية الكبيرة بالورود إلى مصر، وكان من هؤلاء الشاعر المشهور المتنبي، فقد جاء في ترجمته في بغية الطلب لابن العديم: «قدم الشام في صباه وجال في أقطارها، وصعد بعد ذلك إلى الديار المصرية، وكان بها في سنة خمس وثلاثين ثلاثمائة» أي بعيد وفاة الأخشيد، وتسلم ابنه أنوجور للحكم.

فقد نقل ابن العديم عن تاريخ المسبحي «قصيدة لأبي الطيب يرثي بها أبا بكر بن طغج الأخشيد ويعزي ابنه أنوجور بمصر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، والقصيدة ليست في ديوان شعره، فقد كان أبو الطيب صعد إلى مصر مرة أخرى قبل هذه المرة التي ذكرناها، وأول القصيدة:

هو الزمان مشت بالذي جمعا ... في كل يوم ترى من صرفه بدعا
إن شئت مت أسفا أو فابق مصطبرا ... قد حل ما كنت تخشاه وقد وقعا
لو كان ممتنع تغنيه منعته ... لم يصنع الدهر بالإخشيد ما صنعا

وهي طويلة».

وبعدما عاد المتنبي إلى الشام أعلن ثورته في البادية وألقى عليه القبض، ثم أطلق سراحه، فالتحق بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وهنا طارت شهرته، وفي ذروة نشاطه وسمو مكانته لدى سيف الدولة، هجر حلب، وقصد مصر حيث كانت السلطة بيد كافور الأخشيدي، هو لم يعد إلى مسقط رأسه في الكوفة، ولم يقصد العراق حيث حظي بالشهرة، بل ذهب إلى مصر، والتحق بكافور العبد النوبي الخصي.

ويرجح أن المتنبي كان مكلفاً من قبل الدعوة الإسماعيلية بالعمل على كسب سيف الدولة الشيعي الإمامي، لكن الحمداني تأثر بالداعية النصيري الخصيبي، وهكذا تأزمت الأمور بين المتنبي وسيف الدولة، فما كان منه إلاّ الذهاب إلى مصر[1].

وفي مصر ألح المتنبي على كافور إسناد ولاية له قرب الصحراء الغربية، وكان كافور يدرك مراميه، لذلك سوفه ولم يستجب لطلبه، واتصل المتنبي بواحد من كبار قادة جيش كافور، فمات هذا في ظروف غامضة، وهنا قرر المتنبي، أو بالحري صدرت الأوامر إليه من قيادة اسماعيلية ما بالخروج من مصر والالتحاق بعضد الدولة البويهي، وعند عضد الدولة لاقى المتنبي حتفه، وحيكت حكاية هجائه لواحد من الأعراب، وفي الحقيقة لولا امتلاك الإسماعيلية لجهاز قوي في مصر والشام لما استطاع المتنبي النجاة من كافور والوصول سالماً إلى العراق، وروى ابن العديم عن ذيل تاريخ ابن يونس للحضرمي: «أبو الطيب، يعرف بالمتنبي، رحل من مصر سراً من السلطان، ليلة النحر سنة خمسين وثلاثمائة، ووجه الأستاذ كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى، فلم يلحق»[2]، وإثر خروج المتنبي أذاع الإسماعيلية أن مصر لن تسقط لهم «حتى يزول الحجر الأسود من مكانه»، وقصد بالحجر الأسود كافور الأخشيذي وبالفعل مات كافور سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م[3].

ولقد كان كافور سياسياً بارعاً، وببراعة حال دون سقوط الحكم الأخشيدي وحافظ على استقلال مصر، وقد ذكر أبو المحاسن بن تغري

---

(١) ابن العديم بغية الطلب في تاريخ حلب ص ٦٣٩، ٦٥٦، ٦٧٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٧٥، ٦٨٢.

(٣) زكار الجامع في أخبار القرامطة ص ٩٠. السيد كاشف مصر في عصر الأخشيديين ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

بردي أن كافوراً كان: «خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً، جيد العقل، داهية، كان يهادي المعز صاحب المغرب، ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء»[1].

هذا ونقلت سيدة إسماعيل كاشف خبر وجود قطعة قماش من نسيج مصر كتب عليها: «بسم الملك الرحمن الرحيم، نصر من الله وفتح قريب، لعبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة»، وربطت ما جاء على هذه القطعة برواية أوردها ابن الزيات في كتابه «الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة»، حيث قال: «وكان المعز قد جاء قبل ذلك في زمن كافور إلى مصر، فخرج إليه هو وعبد الله بن طباطبا، فقال عبد الله: ما نسبك، ما حسبك، فرجع المعز، وهذه هي المرة الأولى، فلما دخل إلى المغرب، بعث جوهراً القائد، فملك مصر، ثم بعث جوهر يقول: قد ملكت مصر، فركب من المغرب وأتى إلى مصر».

وعقبت على ذلك بقولها: «والراجح عندنا أن من المحتمل أن يكون المعز قد قدم إلى مكان ما على الحدود المصرية، وأن يكون كافور قد خرج للقائه، ومعه ابن طباطبا للمفاوضة في مصير البلاد[2].

وهذا الترجيح بعيد الاحتمال، لعدم ذكره من قبل أي من المؤرخين المشارقة أو المغاربة، ولأن ابن الزيات كان متأخراً من أهل القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، ويستبعد أن يأمر كافور بصنع ثوب للمعز عليه ألقابه ليهديه له أثناء اللقاء به، وكل ما في الأمر أن هذا الثوب ربما صنع في مصر أيام كافور، وحمل إلى المعز، الذي بدوره جلبه معه لدى

---

(١) ابن سعيد النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦.

(٢) ابن الزيات ـ الكواكب السيارة ص ١٧٥. مصر في عصر الأخشيديين ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

قدومه إلى مصر للاستقرار بها، متذكرين أن الإسماعيلية في مصر نشطوا أيام كافور بشكل مكشوف، فقد شيد أبو جعفر أحمد بن نصر «داراً كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب»[1].

وقبل وفاة كافور الأخشيدي، كان المعز لدين الله الفاطمي قد شرع في إعداد الخطط للاستيلاء على مصر، وما حملة جوهر الكبيرة للسيطرة على بلدان المغرب إلاّ كانت ضمن مخطط الزحف نحو المشرق، بوساطة جمع الأموال والرجال، وتهدين أرجاء المغرب حتى يكون التفرغ لمشروع مصر كاملاً، ففي سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م «أمر المعز بحفر الآبار في طريق مصر، وأن يبنى في كل منزلة قصر، ففعل ذلك»[2]، ولم يكتف بذلك بل جمع الأموال العظيمة ورصدها لمشروع مصر، فقد استدعى المعز في أحد الأيام إليه صاحب بيت المال، «فوجده في وسط القصر جالساً على صندوق، وبين يديه ألوف صناديق مبددة في صحن القصر، فقال له: هذه صناديق مال، وقد شذ عني ترتيبها، فانظرها ورتبها»، ورتب الرجل الصناديق، وختمها بخاتم المعز ورفعها، وكان جملة ما فيها: «أربعة وعشرين ألف ألف دينار، وذلك في سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فأنفقها أجمع على العساكر التي سيرها إلى مصر»[3].

وبعد ما مات كافور الأخشيدي، اضطربت الأحوال كثيراً في مصر وفي بلاد الشام، فقد استبد بالسلطة الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات، واستقل بالوزارة وتدبير شؤون المملكة باسم أحمد بن علي بن الإخشيد، وعجز ابن الفرات عن ضبط الأمور، وقبض على عدد من أركان السلطة

---

(١) كاشف مصر في عصر الأخشيديين نقلاً عن أخبار سيبويه المصري لابن زولاق ص ٣٦٣.

(٢) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ص ٩٦.

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٦ ـ ٩٧. النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٤١.

أيام كافور، وصادر أملاكهم، وكان من بينهم يعقوب بن كلس، وأودعهم السجن، ثم أطلق سراح ابن كلس، الذي انتهز فرصته، فهرب من مصر، والتحق بالمعز لدين الله في إفريقية، ولسوف يشغل ابن كلس دوراً فيصلاً في تزويد المعز بما احتاجه من معلومات للاستيلاء على مصر، وكان دوره بعد الاستيلاء على مصر أعظم في مجالات إدارة الدولة وفي مجالات العمل الدعوي الإسماعيلي، ولهذا سوف نفرد له حديثاً خاصاً[1].

وتردت الأوضاع المالية كثيراً في مصر، وقصر النيل، وانتشرت المجاعة، واضطرب الأمن، وفقدت حكومة ابن الفرات هيبتها وعجزت عن دفع أعطيات الجند، واستغلت الدعاية الفاطمية تدهور الأوضاع، وقد استفاد المعز من ذلك لتشجيع شيوخ كتامه، ودفعهم للموافقة على حملة مصر، فقد روى المقريزي، أن زوجة المعز بعثت «من المغرب بصبية ربتها لتباع في مصر، فطلب الوكيل فيه ألف دينار، فجاءت امرأة شابة على حمار، فلم تزل حتى اشترتها منه بستمائة دينار، وقيل له: يا مغربي هذه بنت الأخشيد اشترت الجارية تتمتع بها»[2].

وقام المعز بحركة مؤثرة، فاستدعى شيوخ كتامة في يوم بارد شات فوجدوه «في مجلس مربع كبير مفروش باللبود على مطارح، وحوله كساء، وعليه جبة، وحواليه أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب، وبين يديه مرفع ودواة»، وقال للشيوخ انظروا إلى حالي وانشغالي بأموركم، وقال: «إني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي، وإني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلاّ بما صان أرواحكم وعمر بلادكم، وأذل أعداءكم وقمع أضدادكم»، وطلب منهم تقليده في أعماله،

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٣٧، جـ ٢ ص ٤٤٠. مصر من عصر الأخشيديين ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

والالتزام بزوجة واحدة، والحفاظ على أبدانهم وقال لهم: «وما علموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق»، ولعله حكى لهم قصة السيدة الأخشيدية والجارية ثم قال: «يا أخواننا انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شيء، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها، فقد ضعفت نفس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم»[1].

واستكمل المعز إعداداته لغزو مصر، وأصدر أوامره إلى أتباعه في تلك البلاد بالنشاط وإعداد العدة لعملية الاستيلاء، قال المقريزي: «وكانت بمصر للمعز دعاة استدعوا خلقاً في البلد، وكانوا يقولون: إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها، وبيننا وبينكم الحجر الأسود ـ يعنون كافور الأخشيدي ـ فلما مات كافور، انفذ المعز إلى دعاته بنوداً، وقال لهم: فرقوها على من يبايع من الجند، وأمرهم إذا قربت العساكر ينشرونها»[2].

وأجمل المقريزي وصف الأوضاع المتردية وقتها في مصر سياسياً وأمنياً قبيل تسيير جيوش المعز لدين الله الفاطمي إليها بقوله: «وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد قبله مثله، بحيث أنه أحصي من مات في أيام يسيرة فكانوا ستمائة ألف إنسان، وكانوا يلقون الغرباء في النيل، وبلغ الفروج ديناراً، والبيضة درهماً، وبيع الأردب القمح بثمانين ديناراً، مع كثرة الفتن، وتغلب كل واحد من العمال وغيرهم على ما يليه، واختلاف أهل الدولة بمصر من

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٥ ـ ١٠٠. النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٢، نقلاً عن الحسن بن زولاق (٣٠٦ ـ ٣٨٧/٩١٩ ـ ٩٩٧) صاحب كتاب «إتمام أخبار أمراء مصر للكندي». ترجمة جوهر من المقفى للمقريزي ـ في مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢٦. مصر في عصر الأخشيديين ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

الإخشيدية والكافورية وكثرة تحاسدهم، وعظم الخوف من هجوم القرامطة، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام، فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر، واتضعت أمور الناس، وتغيرت نياتهم، وساءت معاملاتهم، وفسدت أكثر أوضاعهم، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها، وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثرة الخوف»[1].

وكان في سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م قد بدأ المعز لدين الله الإجراءات الفعلية الأخيرة للإعداد لحملة مصر، ففي هذه السنة أخرج جوهراً «ليحشد كتامة الذين ينهض بهم إلى المشرق، ويجبي من البربر خمسمائة ألف دينار، وقدم يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعساكر عظمة من كتامة والجند والبربر، فأقام خارج المنصورة لتجتمع إليه الحشود والعساكر، وفتح المعز بيت المال، وأعطى الأموال من ألف دينار إلى عشرين ديناراً.

ثم دخل في يوم السبت لأربع عشرة مضت من ربيع الأول بالعساكر، ومعه زيادة على مائة ألف فارس، وبين يديه أكثر من ألف ومائتي صندوق فيها المال فنزل برقادة، وخرج إلى المعز وخلابه، وأطلق يده ليتصرف في بيوت أمواله كيف شاء، ويأخذ منها زيادة على ما معه ما أحب واختار.

فقال المعز، وجوهر قائم بين يديه، والعساكر مجتمعة، والله لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر، وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»[2].

---

(١) ترجمة جوهر في مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) ترجمة جوهر ـ المدخل ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٧. النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٢.

وأجرى المعز وداعاً حافلاً لجوهر، «وأنشد أبو القاسم محمد بن هانئ قصيدة بديعة في يوم رحيل جوهر، وكان من أيام الله العظيمة المهولة، منها:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولايات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائنا ... وإن سار على أرض ثوت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث يحله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الضخم حوله ... وزف كما زف الصباح الملمع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فال بالذي أنت تجمع
فإن يك في مصر ظماء لورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهمع
ويمسهم من لا يغار بنعمة ... فيسلبهم لكن يزيد فيوسع»

وما أن تحرك الجيش حتى هرب منه خمسمائة فارس، فخرج جوهر في طلبهم ففاتوه، فقال المعز: «الله أكرم من أن ينصرنا بأراذل البربر، وإني لأرجو أن يكون بزوالهم زوال النحس عن عسكرنا»[1].

ووصلت إلى مصر أنباء الحملة الفاطمية العملاقة، وهنا نشطت العناصر الإسماعيلية فيها بشكل مكثف ومثلث ما يعرف بأيامنا باسم «الطابور الخامس»، ولم تمتلك السلطات المصرية لا النية بالمقاومة ولا القدرة على فعل ذلك، ولهذا عندما «قرب جوهر من أرض الإسكندرية،

(١) ديوان ابن هانئ ـ ط. دار صادر ص ١٩٢ ـ ١٩٨. المدخل ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِنْزَابة، الناس بداره من مصر، واتفقوا على مراسلة جوهر، وأن يشترطوا عليه أن يقرهم على ما بأيديهم من الضياع والأعمال التي يتولوها»، وجرى اختيار وفد من أشراف الفسطاط للاجتماع بجوهر، وقد لقوه، «فوافقهم وأجابهم إلى ما التمسوه وكتب لهم كتاباً نصه بعد البسملة:

«هذا كتاب جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرها:

إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم: أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه، وأبو إسماعيل الرسي أيده الله، وأبو الطيب الهاشمي أيده الله، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله، والقاضي أبو طاهر أعزه الله، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله (عليه) وحسن نظره إليكم.

فاحمدوا الله على ما أولاكم، وأشكروه على ما آتاكم، وادأبوا فيما يلزمكم، وسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسعادة عليكم والعصمة الشاملة لكم، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم، والجهاد عنكم، إذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستدل، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكد عزمه، واشتد طلبه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة لمقاتلته دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمهم الخزي، وشملتهم الذلة،

واكتنفتهم المصائب، وتتابعت لديهم الرزايا، واتصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعلا صراخهم، فلم يغثهم إلا من أومضه امرهم، ومضه حالهم، وأبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حل بهم، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فرجاً بفضل (الله) وإحسانه لديه، وما عوده وأجراه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم، وعذاب أليم، وأن يؤمن من استولى عليه الوجل، ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل، وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه من الخوف المستولي عليهم، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى، فسفكت دماؤهم، وابتزت أموالهم، مع اعتماد ما هي عادته من إصلاح الطرقات وقطع عيث العائثين فيها ليتطرق الناس آمنين، ويمشوا مطمئنين، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها، إذ لا زاجر للمعتدين، ولا دافع للظالمين.

ثم تجديد السكة وضربها على العيار الذي (عليه) السكة الميمونة المنصورة المباركة، وقطع الغش منها، إذ كانت هذه الثلاث خصال ما يسع من ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها.

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الأذى، ورفع المؤن، والمناداة في الحق، وإعانة المظلوم، والتقريب والاشفاق والاحسان، وجميل النظر، وكريم الصحبة، ولطف العشرة، وافتقاد الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغائهم معايشهم، حتى لا تجري أمورهم إلا على ما لم شعثهم، وأقام

أودهم، وأصلح بالهم، وجمع قلوبهم، وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى صلوات الله عليه باتباعها عليكم.

وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال عن غير وصية من المتوفى بها، فإنه لا استحقاق لتصييرها ببيت المال.

وأن أتقدم في رم مساجدكم، وتزيينها بالفرش والايقاد، وأعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم، وأدرها عليهم، فلا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلا من بيت المال، لا بإحالة على من يقبض منهم.

وأما غير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما نصه من ترسل عنكم أيدهم الله أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم، وإن لم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذاهبكم وأن تتركوا على (ما) أنتم عليه من أداء الفروض في الاشتغال بالعلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأئمة من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجري فرض الآذان والصلاة وقيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله به، ونصه نبيه ﷺ في سنته، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ولكم علي أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد والمتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم

ونعمكم وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض، ولا يجتني عليكم مجتني ولا يتعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذب عنكم، ويمنع منكم، فلا يتعرض إلى أذاكم، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم، ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه، ويصل إليكم خيره، وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

ولكم علي الوفاء بما ألزمته نفسي، وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون وتسلمون علي، وتكونون بين يدي إلى أن أعبر الجسر، وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون إلى فروضها. ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما أمرتم به، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين.

وكتب جوهر القائد الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار.

وفي آخره قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين: كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وعلى الوفاء بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه، والحمد لله رب العالمين، وحسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين، وكتب جوهر بخطه وأشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين

وهم: أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني، وابو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الرسي الحسني، وأبو الطيب العباسي بن أحمد الهاشمي، والقاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وابنه أبو يعلى محمد بن محمد، ومحمد بن مهذب بن محمد، وعمرو بن الحارث بن محمد»[1].

وأخذ منه أبو جعفر مسلم كتاباً إلى جماعة منهم: الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، وأجاز جوهر الجماعة، وحملهم، فلم يقبل أبو جعفر مسلم منه شيئاً، وطعم الجماعة عنده معه وودعوه وانصرفوا.

ولكن ما كاد الوفد يشرع بالعودة نحو الفسطاط، حتى بلغه أن بقايا قادة الأخشيدية والكافورية رفضوا الاستسلام، وقرروا المقاومة والقتال، وعرف القائد جوهر بذلك، فراسل الوفد بالعودة إليه وطلب رد أمانه إليه، فرفقوا به فقال للقاضي أبي طاهر: «يا قاضي ما تقول في هذه المسألة؟ فقال: ما هي؟ قال: ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضي إلى الجهاد ويقاتل الروم، فمنع، أليس له قتالهم؟ فقال القاضي نعم، فقال جوهر: وحلال قتالهم؟ قال: نعم».

وتجمعت العناصر الرافضة للاستسلام، وحاول الوزير ابن الفرات ووفد الأشراف ثنيهم عن مواقفهم، وقرأوا عليهم الأمان الذي بعثه القائد جوهر، وأصر هؤلاء على موقفهم وقال أحدهم لأحد الأشراف: «لو جاء يا شريف جدك محمد ﷺ بهذا ضربنا وجهه بالسيف»، ووقع اختيار هؤلاء على واحد من القادة اسمه نحرير شويزان، فاختاروه أميراً، وتجاهلوا حين فعلوا ذلك الوزير ابن الفرات، وأحمد بن علي بن الأخشيد، الذي كان صاحب السلطة الرسمية.

---

(١) زكّار ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة جوهر نقلاً عن المقريزي ص ٣٢٤ ـ ٣٤٠.

ولقد كانت الحملة الفاطمية برية بحرية، حيث ما لبثت سفن الأسطول الفاطمي أن دخلت من تنيس ومن دمياط دونما مقاومة، وأبحرت باتجاه الفسطاط دون أدنى مقاومة، وحاولت بقايا الأخشيدية منع الجيش الفاطمي من العبور من منطقة الجيزة، وجرت اشتباكات، قتل خلالها أعداد كبيرة من قادة الأخشيدية والكافورية، وهرب الباقون، كما قتل أثناء ذلك عدد كبير جداً من المصريين.

ومن جديد التجأ أعيان الفسطاط إلى الشريف أبي جعفر مسلم «وسألوه أن يكتب إلى جوهر في إعادة الأمان»،، وفي الوقت نفسه أخذت بعض العناصر المؤيدة للفاطميين تتجول في أرجاء الفسطاط، ومعها راية كتب عليها اسم المعز لدين الله، وكانت هذه الجماعة تقرع الأجراس وتنادي بالأمان، وانتشرت الأعلام الفاطمية في دروب المدينة، وباتت مستسلمة، ذلك أنها خلت من قادة المقاومة، فقد فرّ جل هؤلاء نحو بلاد الشام، واستجاب القائد جوهر إلى التماس الشريف أبي جعفر مسلم، وأعاد الأمان.

وفي «يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان، خرج الشريف أبو جعفر مسلم، والوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات، وسائر الأشراف والقضاة وأهل العلم والشهود، ووجوه التجار والرعية إلى الجيزة، فلما تكامل الناس أقبل القائد جوهر في عساكره، فصاح بعض حجابه: الأرض إلاّ الشريف والوزير، وتقدم الناس، وأبو جعفر أحمد بن نصر التاجر يعرفه بالناس واحداً واحداً، فلما فرغوا من السلام عليه، مضى إلى فسطاطة، فأقام إلى أن زالت الشمس، فسارت العساكر، وعبرت الجسر أفواجاً أفواجاً، ومعهم صناديق بيت المال على البغال، واقبلت القباب، ثم جاء القائد جوهر في حلة مذهبة، مثقل يحف به فرسانه ورجالته، ومد العسكر بأسره إلى المناخ الذي رسم به المعز، وهو موضع القاهرة».

وتحرك جوهر بسرعة وتدبر فضبط أمور الفسطاط، ووزع الأموال والصدقات على الفقراء، وأمن الدقيق والخبز، وألقى القبض على بقايا الأخشيدية والكافورية، فأرسل بعضهم إلى المعز، وقتل بعضهم الآخر، وسرح البقية من الخدمة، وأمر بتغير الأذان، وخطب خطيب الجمعة الخطبة في الجامع العتيق، وهو يرتدي البياض شعار أهل البيت, وقرأ في نهاية الخطبة من رقعة مكتوبة ما نصّه: «اللهم صلِّ على عبدك ووليك ثمرة النبوة، وسليل السادة المهدية، عبدك معد ابي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين، وأسلافه الأئمة الراشدين.

اللهم ارفع درجته، وأعلي كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته ومحبته، واجعل الرشاد في موافقته، وورثه مشارق الأرض ومغاربها، واحمده مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول قول الحق: ﴿**ولقد كتبنا بالزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فقد امتعض لدينك، ولما انتهك من حرمتك، ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتك، وزيارة قبر رسولك ﷺ، فأعدَّ للجهاد عدته، وأخذ لكل خطب أهبته، فسير الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في مرضاتك، فارتدع الجاهل، وقصر المتطاول، وظهر الحق، وزهق الباطل.

فانصر اللهم جيوشه التي سيرها، وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين، وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرمين، وإزالة الباطل، وبسط العدل في الأمم، اللهم فاجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة، وأصلح به وعلى يديه».

وبعد ذلك ألغى جوهر التعامل بالنقود العباسية، «وضرب السكة الحمراء ونقشها:

دعا الامام معد لتوحيد الإله الصمد ـ في سطر.

وفي السطر الآخر: المعز لدين الله أمير المؤمنين.

وفي السطر الثالث: ضرب هذا الدينار بمصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وفي الوجه الآخر: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون. علي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين».

وبدأت بعض قوات الدولة الاخشيدية المنهارة في أطراف مصر والشام تستسلم وتطلب الأمان لتعود إلى مصر، وباتت الظروف واعدة بإمكانية الاستيلاء على بلاد الشام.

وشرع جوهر ببناء مدينة القاهرة لتكون معسكراً اسماعيلياً كتامياً، فبنى أولاً القصر، ومصلى العيد، كما بدأ يضفي الطابع الاسماعيلي الرسمي على مصر، فقد أفطر «جوهر في عيد الفطر على عدد بغير رؤية»، ومنع التماس الهلال حسب العادة، وأمر بأن يزاد في خطبة الجمعة: «اللهم صل على النبي محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين».

وهكذا صار عنوان الدولة في مصر رسمياً التشيع الاسماعيلي، لكن ذلك كان مجرد عمل رسمي لم يتغلغل إلى أعماق أوساط الشعب، ولعل من أسباب ذلك ليس فقط تجذر الفكر السني في مصر، بل لأن السلطة الجديدة عزلت نفسها عن شعب مصر باتخاذ مقر لها اختصت به هو معسكر القاهرة، وترك الفسطاط لأهل مصر ثم إن السلطة الجديدة اعتمدت

عسكرياً على عناصر قبلية مغربية، كانت أدنى من أهل الفسطاط حضارياً واجتماعياً، يضاف إلى هذا أن هذه العناصر سوف تواجه في بلاد الشام الإخفاق تلو الإخفاق، مما سيجبر المعز في أواخر أيامه، وابنه العزيز بشكل واضح، على تجنيد عناصر شرقية وسودانية كثيرة، فضلاً عن هذا، صحيح أن القائد جوهر بنى الأزهر ليكون مسؤولاً عن الدعوة الاسماعيلية لكن الأزهر الفاطمي انشغل بإعداد الدعاة لبلدان المشرق واليمن وسواها، وعانى دوماً ما عانته الدعوة الاسماعيلية من انتكاسات وانشقاقات بعد المعز، آخذين بعين التقدير أن المعز كان آخر خلفاء الدولة الفاطمية الأكفاء، والذين جاؤوا من بعده كانوا سجناء القصر، ضعفاء، شغلتهم الأمور الدينية والمؤامرات والدسائس المحلية، ولسوف نرى أن الخلافة الفاطمية قدّر لها البقاء في مصر، بالدرجة الأولى، بفضل الترتيبات التي أرساها الوزير اليهودي يعقوب بن كلس، وذلك في المجالات الادارية والمالية والسياسية والعقائدية[1].

وشجعت النجاحات التي حققها في مصر، واستسلام بعض بقايا القوى الاخشيدية جوهراً، على ارسال جعفر بن فلاح، على رأس قوات كبيرة للاستيلاء على بلاد الشام، وأزالت هذه الخطوة جميع الألق والمجد الذي حققه جوهر حتى الآن، كما أفقدت الزعيم الكتامي جعفر بن فلاح حياته، وتعرضت المؤسسة الفاطمية في مصر إلى خطر الزوال، مما دفع المعز لدين الله لمغادرة إفريقية، والقدوم مسرعاً إلى مصر لتدارك

---

(١) زكار المدخل ص ٣٢٤ ـ ٣٤٠. المقريزي اتعاظ الحنفا ١٠٣ ـ ١٣٩. ابن سعيد النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢١ ، ٤١ ـ ٤٥. الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٠ ـ ٣١. صلة عريب ص ٤٢٩. سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ـ ط. بغداد ١٩٩٠ ص ١٥٩ ـ ١٦٠. البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ٢٦٦. المنتظم لابن الجوزي ـ ط. دار الفكر بيروت ج ٨ ص ٤٠٧٧. كاشف مصر في عصر الاخشيديين ص ٣٦٤ ـ ٣٧٠.

الأوضاع، وقبل الحديث عن حملة جعفر بن فلاح لا بد من وقفة للحديث عن أوضاع بلاد الشام، وكذلك عن الأوضاع في بغداد، وفي الأحساء والبحرين، وكذلك في الجزيرة الفراتية، فجملة هذه الأوضاع، مع تدني السوية القتالية لدى المغاربة أمام المشارقة، وسوء الإدارة المالية الفاطمية، ومشاكل الفوارق الاجتماعية، والمذهبية، وانعدام الكفاءة السياسية لدى ابن فلاح والذين خلفوه، ودور الامبراطورية البيزنطية أحبطت المشروع الفاطمي، وحصرت السلطة الفاطمية في مصر، وهكذا أخفق الفاطميون في السيطرة على العالم أو على دار الإسلام، ولم يعرف حكمهم الاستقرار في الشام، وحين سعوا مؤخراً إلى تحويل أنفسهم إلى أسرة مصرية محلية، أخفقوا، وفقدوا المغرب وساروا نحو درب النهاية.

وكان الوضع في بلاد الشام، هو أن هذه البلاد كانت مقسمة بشكل عام: شمالي حاضرته حلب، وجنوبي حاضرته دمشق، وأخفق الفاطميون في الاستيلاء على القسم الشمالي الذي كان يحكمهم من قبل الدولة الحمدانية، وكانت القوى الفاعلة في حلب بالاضافة إلى الدولة الحمدانية، هي قبائل الأرياف الشامية والجزرية، وأهم هذه القبائل انحدرت من قبائل عامر بن صعصعة هي: كلاب، وعقيل، ونمير، وقشير، وخفاجة، وبسبب حركات القرامطة في شبه جزيرة العرب والشام والعراق والجزيرة مع أسباب أخرى، وصل إلى الشام الشمالي والجزيرة موجة كبيرة من مهاجري هذه القبائل، وكان ذلك مع نهاية الربع الأول للقرن الرابع للهجرة، ومع الأيام اتخذت كل قبيلة ديارا، أو بالحري دويلة لها، فقد استقرت عقيل حول الموصل لترث بعد أمد الدولة الحمدانية هناك، واستقرت كلاب حول حلب، لتتمكن هي بدورها بعد مدة من الزمن من وراثة الدولة الحمدانية في حلب، واستقرت قشير حول قلعة جعبر قرب الفرات في منطقة الرقة،

واتخذت نمير من حران حاضرة لها، وكانت هذه القبائل تدين بالتشيع الإمامي وليس الإسماعيلي[1].

ومع نفوذ القبائل المؤثر، كانت الامبراطورية البيزنطية نشطة جداً في هذه الآونة. فقد انهار نظام الثغور والعواصم، واقتحم الامبراطور نقفور فوقاس مدينة حلب سنة ٣١٥هـ/٩٦١م أيام سيف الدولة بالذات، ووصلت القوات البيزنطية إلى طرابلس وإلى مشارف الشام، ودخلت حلب تحت الحماية البيزنطية[2].

وعلى الرغم من هذا كله رست السلطة الفعلية داخل مدن الشام الرئيسية بيد تنظيم شعبي اسمه «الأحداث»، وكان المستشرق الفرنسي كلود كاهن من أوائل من تناول بالبحث تاريخ هذه المنظمة، التي عرفتها مدن الشام منذ القرن الثالث للهجرة أو قبل ذلك، وقد اقترح بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة من حيث الأصول، أو بالحري هي امتداد لما عرفته بيزنطة من تنظيمات قبل الاسلام وبعده، أي أنها انبثقت عن جماعات الخضر والزرق.

هذا وليس هناك شواهد مادية موثقة تؤيد هذا الاقتراح، ويرجح أن منظمة الأحداث قد ولدت في بلاد الشام، مثلما ولدت في العراق منظمات الشطار والعيارين، وطبعاً اختلف الأحداث عن الشطار والعيارين بالشكل والمضمون والوظائف والأدوار، وفي بلاد الشام نمت منظمات الأحداث، وتأثرت دوماً بمشاكل الشام الخاصة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، ولم

---

(١) صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٠٥. جمهرة النسب لابن حزم ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥. بغية الطلب ج ١ ص ٥٤٣ ـ ٥٥٩. صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣.

(٢) زبدة الحلب لابن العديم ـ ط. دمشق ١٩٩٧ ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٥٣. بغية الطلب ج ١ ص ١٥٣ ـ ٢٠٥. ابن القلانسي ـ ط. دمشق ١٩٨٣ ص ١ ـ ٦.

يكن للأحداث أية علاقة أو قاسم مشترك مع منظمات الامبراطورية البيزنطية، وأكثر ما نشط الأحداث بشكل فعال في دمشق وحلب وكانت هاتان المدينتان ـ وخاصة حلب ـ في العصر البيزنطي، مدناً من الدرجة الثانية، لأن القدس وأنطاكية احتلتا آنذاك مكان الصدارة، ولقد قلل الفتح الإسلامي من مكانة القدس وأنطاكية سياسياً، وزاد من أهمية دمشق وحلب، ثم أنه ليس من الضرورة مطلقاً أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الأمم، أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة، يضاف إلى هذا أن بلاد الشام كانت دوماً المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي، ولا سيما النواحي الاجتماعية والدينية، زد على هذا كانت بلاد الشام قبل الفتح العربي الاسلامي ساحة للصراعات الساسانية البيزنطية، وللصراعات الداخلية التي نجمت عن الانقسامات الكنسية، ويبقى العامل الحاسم هو أنه لم يرد في أي مصدر من المصادر إشارة إلى وجود منظمات شبه عسكرية داخل مدن الشام الكبرى أثناء الفتح العربي الاسلامي.

وبعد سقوط الخلافة الأموية، أهمل العباسيون بلاد الشام، وكان ظل حكمهم ضعيفاً بشكل دائم، ومع الأيام ازداد هذا الحكم ضعفاً، وتعرض العديد من المدن الشامية إلى المخاطر الخارجية، وربما عندما وجد أهالي المدن، ولاسيما في منطقة الثغور، أن العباسيين مشغولين بسواهم، قام بعضهم بإنشاء بعض التنظيمات الدفاعية ومن الأمثلة الموضحة لهذا أنه في سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م، أخفق جيش عباسي قوامه عشرة آلاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار مدينة حلب، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي، ووقوع مدينتهم تحت الحصار، شكلوا قوة محلية، نجحت في الدفاع عن المدينة، وقامت بالهجوم على القرامطة بشكل مفاجئ وأنزلت الهزيمة بهم.

وحين نطالع كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، نجد أن هذا المؤرخ العظيم قدم لنا مادة عظيمة عن منطقة الثغور، من جملة ذلك معظم نص كتاب اسمه «سير الثغور»، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي المتوفى حوالي سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، وقدم الطرسوسي في كتابه هذا وصفاً لا نظير له للحياة العسكرية في الثغور، أهمه ما تعلق بمدينة طرسوس، التي كانت أهم مدن الثغور، وأكثرها شهرة، ولقد حدثنا الطرسوسي أن فتيان طرسوس كانوا يدفعون قبل بلوغهم إلى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة لتدريبهم، واعتاد الشيوخ على تقسيم الفتيان إلى فئات وابقائهم تحت التدريب حتى وصولهم إلى سن الرجولة، حيث يلتحق هؤلاء بما عرف باسم سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر[1].

ونحن لا نستهدف هنا التأريخ لأصول منظمات الأحداث وما قامت به من أدوار، بل المقصود تبيان انتشار القوى المسلحة في المدن الشامية، وهذه القوى هي التي ناصبت القوات الفاطمية العداء بلا هوادة، وبالفعل أعاقت التوسع الفاطمي في دمشق أيام المعز وكذلك أيام العزيز ابنه من بعده.

ولنبق مع أيام المعز، ففي سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م توجه جيش فاطمي بقيادة جعفر بن فلاح نحو بلاد الشام، ووصل هذا الجيش إلى الرملة، فاصطدم هناك ببعض بقايا القوات الاخشيدية مع بعض بقايا القوات البدوية، ومن ثم تابعت زحفها تريد دمشق، وعسكرت هذه القوات في طبرية أولاً، وإلى طبرية وصل وفد يمثل أهل دمشق للتباحث مع جعفر بن فلاح حول دخوله إلى مدينتهم، واستقبلهم جند المغاربة أسوأ استقبال،

---

(١) بغية الطالب ج ١ ص ١٨٨ ـ ١٩١. معجم الأدباء ـ ترجمة عثمان بن عبد الله الطرسوسي. الجامع في أخبار القرامطةج ٢ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٦.

obeikandi.com

حيث قصدوهم «فأخذوهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم وقالوا لهم: أو ذا نحن سائرون إليكم، فصاروا في أسوأ حال قد أخذت أثقالهم، وثيابهم، فلقوا جعفر بن فلاح وعادوا إلى دمشق، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد، وأنهم لقوا قوماً جفاة، قباح المنظر والزي والكلام، ناقصين العقول، فاستوحشت قلوب أهل دمشق من المغاربة..... وخلت مدينة دمشق من السلطان، فطمع الطامع، وكثر الذعار وحمال السلاح»، وفي منطقة حوران اصطدمت قوات ابن فلاح بالقبائل البدوية هناك، وعلى رأسها قبيلة عقيل، وإثر هذا وصلت هذه القوات إلى الغوطة، وكذلك إلى منطقة المزة حيث نزلوا على نهر يزيد، «فثار عليهم أهل دمشق وقاتلوهم... وهزموهم عن دمشق» واستمر القتال عدة أيام «وصاح الناس في جامع دمشق بعد الصلاة النفير، فخرج النفير، واشتد القتال إلى آخر النهار» وحل موعد عيد الأضحى والقتال مستمر «ولم يصل الناس يومئذ صلاة العيد» وفقد أهل دمشق عدداً كبيراً من القتلى، «وقام بأمر البلد أبو اسحق محمد بن عصودا ـ مقدم الأحداث ـ وأغلق الأبواب وأوقف الرماة على شرفات السور، فرموا المغاربة بالنشاب»، ولجأت القوات الفاطمية إلى محاولة احراق دمشق، فنجحت بعض النجاح، «فقتل خلق، ودخلت فرقة من المغاربة باب الجابية، فتكاثر الناس عليهم، وأخرجوهم وأغلقوا الباب، وأحاط العسكر بالبلد من كل ناحية ووقعت المضاربات، وارتفع ضجيج الرجال والنساء بالبكاء والنفير، وظنوا ان القوم يدخلون البلد بالسيف، وكان قد قرب غروب الشمس، فأمسك العسكر عن القتال، وتقدم رجل من العسكر، وأشار إلى من فوق الأسوار، وحدثهم فأمسكوا عن الرمي، وبات أهل دمشق ليلة الأحد ـ ثاني يوم عيد الأضحى ـ في سد الأبواب وتضييق الدروب، وكسر القني في الأسواق ـ وحفر الخنادق ـ وعزموا على القتال، وباتوا على خوف، فلما أصبحوا خرج المشايخ إلى جعفر بن فلاح

ليتحدثوا معه في الصلح، فما هو إلاّ أن ساروا عن البلد قليلاً، خرج عليهم فرسان من المغاربة أخذوا ما عليهم من الثياب، وقتلوا منهم رجلين، فلما رأى من كان فوق المآذن والأسطحة ذلك، صاحوا: اضبطوا الأبواب، فقد شلحوا المشايخ، فظن الناس أن العسكر يريد الركوب، ودخل المشايخ عرياً، فارتاع أهل البلد، واشتد خوفهم وتحيروا، ثم جرت بينهم مراسلة فخرجوا إلى جعفر، فرعب عليهم، ووعد البلد بالنار والسيف، فعادوا خائفين وجلين، وبلغوا أهل البلد ما أقلقهم، فاشتد اضطرابهم، وعاد المشايخ ثانياً إلى جعفر فاشتد عليهم، وأرعد فأبرق، فسألوه العفو، فقال: ما أعفوا عنكم حتى تخرجوا إلي ومعكم النساء فيتضرعن ويكشفن شعورهن ويمرغنها في التراب بين يدي، فقالوا: نفعل ما يقول القائد، ورجعوا إلى البلد، وخرجوا إليه بما طلب من تضرع النساء وكشفهن الشعور بين يديه، وهوّ مع ذلك يرهبهم، ثم باسطهم وقال: أريد أن أدخل يوم الجمعة إلى الصلاة، فانصرفوا عنه، وركب يوم الجمعة في عسكره ودخل البلد، فلما خرجوا من الجامع وضع جماعة من العسكر أيديهم في السوق ونهبوه، ثم أرادوا أن يدخلوا إلى الأزقة، فثار بهم الناس، وقتلوا كثيراً من الرجال، فاشتد جعفر على المشايخ، ووعدوهم بكل مكروه، وقال لهم: دخل رجال أمير المؤمنين إلى الصلاة فقتلتوهم، لأسوين بهذا البلد الأرض، فلطفوا به وداروه فقال: أريد دية من قتل من رجال أمير المؤمنين، فأذعنوا لذلك..... ودخلوا البلد وقسطوا المال على الناس، وشرع العسكر في البناء فوق نهر يزيد عند الدكة «منطقة قصر تشرين الحالية» وعملوا مساكن وأسواقاً حتى صارت تشبه المدينة، وبنوا قصراً عظيماً شاهقاً في الهواء غريب البنيان.

فلما استقر في الدكة طلب حمال السلاح، وضرب أعناق كثير منهم، وصلب جثثهم، وعلق رؤوسهم على أبواب المدينة، منها رأس اسحق بن عصودا».

وهرب محمد بن عصودا، مقدم الأحداث ومعه ظالم بن مرهوب العقيلي إلى الأحساء «وحثا القرامطة على المسير إلى الشام، فوافق ذلك منهم الغرض، لأن الاخشيدية كانت تحمل في كل سنة إلى القرامطة مالاً، فلما أخذ جوهر مصر، انقطع المال ـ ثلاثمائة ألف دينار ـ عن القرامطة، فأخذوا في الجهاز للمسير إلى الشام»[1].

وخيل إلى جعفر بن فلاح أن الأمور استقرت له في دمشق والشام الجنوبي، فجهز قوة من جيشه بعثها إلى أنطاكية لاستخلاصها من البيزنطيين، ولاسترداد منطقة الثغور وقد تعاون في سبيل ذلك مع بعض زعماء الثغريين، وحاصرت القوات الفاطمية أنطاكية وفي تلك الأثناء توجهت سرية فاطمية نحو «مرج اسكندرونة، وفيه مضارب الروم الديباج، فتسرع إليها رجالها تنهبها، فحمل عليهم الروم فانهزموا، وأخذهم السيف... فكثرت الأخبار بمسير القرامطة إلى الشام، وأنهم نزلوا على الكوفة، وكتبوا إلى الخليفة ببغداد فأنفذ إليهم خزانة سلاح، وكتب لهم بأربعمائة ألف درهم على أبي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان من مال الرحبة، وأنهم ساروا من الكوفة إلى الرحبة، وأخذوا من ابن حمدان المبلغ»[2].

وقبل متابعة البحث حول ما فعله القرامطة نحتاج إلى وقفة للحديث

---

(١) تارخ ابن القلانسي ص ١ ـ ٤. بغية الطلب لابن العديم ج ١ ص ١٨٨ ـ ١٩٢. الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٦٠. اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٢٠ ـ ١٢٦. زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٣٠٧ ـ ٣١٠. وعالج كلود كاهن موضوع الأحداث مطولاً، وترجم بحثه إلى العربية، ـ انظره في مجلة الاجتهاد ـ العدد السادس ص ١٠٥ ـ ٢٠٦. وعالج شاكر مصطفى الموضوع نفسه بإسهاب ـ مجلة كلية آداب جامعة الكويت ـ العددان الثالث والرابع ص ١٧٤ ـ ٢١٣.

(٢) ابن القلانسي ص ١ ـ ٦ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦. الموسوعة الشامية جـ١ ص ٣١٠ ـ ٣١١. الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩. الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ٤٢. فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب ص ٣٨٩ ـ ٣٩٢. عيون الأخبار للداعي ادريس جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٧٢.

فيها بشكل موجز عن العلاقة القرمطية الفاطمية، وعن تاريخ الأسرة الجنابية في الأحساء والبحرين حتى أيام الحسن الأعصم، وكذلك الحديث عن الدولة الحمدانية في الموصل في ظل حكم ابي تغلب بن ناصر الدولة، وكذلك حول الدولة البويهية في بغداد، وموقفها من الخلافة الفاطمية.

١ ـ القرامطة ـ الأسرة الجنابية:

هناك إجماع على أن حركات القرامطة قد انتمت من حيث النشأة والعقيدة إلى الحركة الإسماعيلية، وتبين أن معنى كلمة «قرمطي» هو «باطني»، وكان للقرامطة حركاتهم في العراق والشام واليمن، والأحساء والبحرين، وعبر التاريخ شهدت الحركة الإسماعيلية تمزقات عنيفة، كان من أهمها خروج قرامطة الشام على القيادة الإسماعيلية، واتخاذها قيادة خاصة بها، ومهاجمة السلمية، وتهديمها، وقبيل ذلك بوقت كان المهدي أول خلفاء الفاطميين مع القائم، قد نجيا، ووصلا إلى الرملة ومن هناك ذهبا إلى مصر على نية التوجه الى اليمن[١]، ومن جديد حدث نزاع عنيف بين قرامطة اليمن بزعامة علي بن الفضل، وإسماعيلية عدن أبين بزعامة منصور اليمن، مما عطل مشروع توجه المهدي مع القائم إلى اليمن، ومن ثم ذهابهما إلى المغرب حتى[٢] سجلماسة.

وعلى هذا إن نشوب خلاف بين الخلافة الفاطمية وقرامطة الأحساء والبحرين لم يكن في سواد الكوفة، حيث جاء من العراق سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م داعية اسمه أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي، ولحقه بعد أمد قصير أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وقام الجنابي بقتل الطمامي،

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ١٠٩ ـ ١٤١.

(٢) زكار الجامع في أخبار القرامطة ص ١٤١ ـ ١٤٦.

فجاء عمله هذا بمثابة تمرد على قيادة العراق ونزوع نحو الاستقلال، واتخذ أبو سعيد من بلدة هجر مقراً له، وتحالف مع عشيرة قوية هناك هي بني سنبر، وهكذا أسس دولة ذات نظام وصف بأنه «نظام اشتراكي» أو «دولة مقاتلين عقائديين»[1]، ونشط قرامطة الأحساء والبحرين ضد قوافل الحجاج وضد قوى الخلافة العباسية، وأشهر غارات القرامطة وأفظعها تلك التي تمت سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، ضد مكة في موسم الحج، حيث جرى قتل الحجاج وانتزاع الحجر الأسود من الكعبة الشريفة ونقله إلى الأحساء، وبقي الحجر الأسود لدى القرامطة حتى ٣٣٩/٩٥٠م ففي هذه السنة ردوه، حيث حملوه أولاً إلى الكوفة «فنصبوه في المسجد الجامع على الاسطوانة السابعة في القبلة مما يلي صحن المسجد حتى يراه الناس، ثم حملوه إلى مكة شرفها الله تعالى، وقالوا: أخذناه بأمر ورددناه بأمر»[2].

وحكى ابن الأثير أن عبد الله المهدي كتب إلى أبي طاهر الجنابي ابن أبي سعيد ينكر عليه فعلته، وتهدده، وأمره أن يرده إلى الكعبة المشرفة مع كسوة الكعبة[3]، ويمكن أن نضيف إلى التدخل الفاطمي عاملاً آخر، هو أن الحركة القرمطية في الأحساء والبحرين أخذت شكل دولة لها نظامها الخاص ومكانتها أيام أبي طاهر، وهكذا خفت حدة نشاط القرامطة ضد الحجاج وسواهم، واتصلت السلطات العباسية به سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤م، وطلبت منه عدم التعرض لقوافل الحجاج، ورد الحجر الأسود، وذلك مقابل اعتراف الخلافة العباسية به أميراً على البلاد التي يحكمها مع دفع مبلغ كبير من المال له سنوياً، وقبل أبو طاهر بالعرض العباسي، ولعله فعل

---

(١) المقدسي أحسن التقاسيم ص ٩٣ ـ ٩٤. ابن حوقل ص ٣٣ ـ ٣٤. الآثار الباقية ص ٢١٢ ـ ٢١٣. الجامع في أخبار القرامطة ص ١٤٦ ـ ١٥١.

(٢) الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٠٨.

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٢٠٤.

ذلك لتدهور أوضاع الخلافة الفاطمية بعد وفاة المهدي، ولأن الدول تتعامل بالسياسة حسبما تمليه المصالح، وغالبا ما يعني انشاء الدولة توقف الحركة الثورية، وقد تضعف المشاعر العقائدية لدى رجل السلطة، ويصير همه الحفاظ على سلطانه واستقلاله، وكل صاحب حكم دائم هو اقل الناس ميلاً إلى الاندماج مع غيرة والتخلي عن ذاتيته، ومات ابو طاهر سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م، وبعد نزاع على السلطة بين أولاده، استبد بها حتى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ابنه سابور حيث قتل وآلت الزعامة إلى ابن أخيه الحسن بن أحمد الذي عرف بلقب الأعصم لقصره[1].

وكان لسقوط الحكم الأخشيدي وتأسيس القاهرة أبعد الآثار على الحسن الأعصم، فهو كان قد استولى على الشام الجنوبي في سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م، واتفق مع الاخشيدية على أن يدفعوا مبلغاً كبيراً من المال سنوياً، ثم عاد الى الإحساء سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م بعد استيلاء جوهر على مصر، وفي الإحساء يبدو أن سابور بن ابي طاهر وأتباعه كان مؤيداً للفاطميين، في حين كان موقف الحسن الأعصم على العكس، فهذا ما يمكن استخلاصه من ابن حوقل، ويؤيده الرسالة التي بعث بها المعز إلى الأعصم أثناء حصاره القاهرة، لاسيما قوله: «فأما أنت ايها الغادر الخائن، الناكث المباين عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأندداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولاخفي عني خبرك، ولااستتر دوني اثرك، وإنك مني لمنظر ومسمع. فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم

---

(١) ابن حوقل ص ٣٣ ـ ٣٤. دي خويه ص ١٥٠ ـ ١٥١. الجامع في أخبار القرامطة ص ١٥٦، ٥٩٤ـ٥٩٥ (نقلا عن مخطوط مرآة الزمان).

وأخبارهم، ولاقرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم، ألم تعلم أنهم كانوا ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ وعزم سديد، وأمر رشيد، وفعل حميد، تفيض إليهم موادنا، تنشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال، ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة، فسادوا منح منا واسماً من أسمائنا»[1].

وصحيح أن أهل دمشق قاوموا جعفر بن فلاح، لكنه استولى عليها وبعث قواته إلى ضد أنطاكية ومنطقة الثغور، ولعله كان يخطط للاستيلاء على حلب ومن ثم الزحف نحو العراق، ولعل القيادة الفاطمية كانت تتوقع عون القرامطة، ومهاجمة العراق من الجنوب، في الوقت الذي تهاجم فيه القوات الفاطمية من الشمال، متذكرين الأعداد الكبيرة من الإسماعيلية في المشرق وكون الديلم مع قبائل الشام والجزيرة والعراق من الشيعة.

وأحبط القرامطة هذه الخطط، وآثر الحسن الأعصم الحفاظ على مصالح دولته المستقلة وكذلك فعل آل بويه، وأمير الموصل أبو تغلب بن ناصر الدولة، متذكرين رغبة بيزنطة بالحفاظ على استقلال حلب لتكون دولة حاجزة بينهم وبين الخلافة الفاطمية، وأدى الاخفاق الفاطمي إلى تعديل السياسة الخارجية، وهذا ما يمكن رؤيته في وصية يعقوب بن كلس للخليفة العزيز: «سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة، ولاتبق على دغفل بن جراح ـ أمير طيء في فلسطين ـ إن عرضت لك فيه فرصة»[2].

---

(١) ابن حول ص ٣٣ ـ ٣٤. انظر رسالة المعز بالملاحق.

(٢) الصيرفي الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ ـ ٢٣. الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي لمحمد حمدي المناوي ص ٣٦. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسة الإسلامية في العصور الوسطى لفيشل ـ ط. بيروت ١٩٨٨ ص٧٠ ـ ٩٨.

٢ ـ الحمدانيون:

ويبدو أن المعز لدين الله كان على دراية بتقلب الأوضاع في المشرق، وأنه لايمكن الاعتماد على بعض رجالات السلطة هناك، لذلك كانت المراسلات متواصلة بينه وبين جوهر في مصر، وقد كتب مرة إلى جوهر يقول: «واما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة من بني حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة في السير إليك، وأن ذلك لما كثر منهم دعاء المنعوت بسعد الدولة ـ ابن سيف الدولة ـ إن كتب إليك يبذل الخدمة بين يديك فاسمع لما أذكره لك: احذر أن تبتدئ أحداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً له ولاترغيباً، ومن كتب إليك منهم فأجبه بالحسن الجميل، ولاتستدعيه إليك، ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه، ولاتمكن أحداً منهم من قيادة جيش ولاملك طرف، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم، وليس لهم فيها نصيب:

يتظاهرون بالدين، وليس لهم فيه نصيب. ويتظاهرون بالكرم، وليس لواحد منهم كرم في الله. ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة.

فاحذر كل الحذر من الاستنامة الى أحد منهم»[١].

وإذا كان المعز لدين الله الفاطمي قد نظر هكذا إلى الحمدانيين فإن الثعالبي صاحب اليتيمة كان منصفاً أكثر منه فقال: «كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم للصباحة وأكفهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وألسنتهم للفصاحة»[٢].

---

(١) ابن سعيد النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٤٣.

(٢) الثعالبي يتيمة الدهر ـ ط. مطبعة السعادة ـ القاهرة جـ١ ص٢٧. أخبار الدولة الحمدانية لعلي بن ظافر الأزدي ـ ط. دمشق ١٩٨٥ ص١١.

ويعود الحمدانيون في أصلهم إلى قبيلة تغلب، التي كانت من أشهر قبائل عرب ما قبل الإسلام، وكانت منتشرة وقتذاك في أعالي ريف الجزيرة الشامية، وكانت تدين بالنصرانية وقد رفضت هذه القبيلة دفع الجزية بعد الفتح، وعالج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القضية فضاعف الصدقة عليها، وحافظت تغلب على مكانتها بصعوبة بالغة في العصر الأموي، واصطدمت بعد معركة صفين بقبائل عامر بن صعصعة وسواها من القبائل العدنانية، كما تأثرت بأحداث الجزيرة لاسيما حركات الخوارج، فآنذاك ظهرت أسرة بني حمدان، وقامت الصلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية منذ أيام المعتضد، ونشط الحمدانيون ضد القرامطة، فآنذاك تكونت شخصية الأسرة الحمدانية، بحيث باتت تمتلك قدرات عسكرية فعالة، واستفادت الخلافة العباسية من إمكانات الحمدانيين في عدة مناسبات وأماكن، وتمركزت الأسرة الحمدانية أولاً في ميافارقين ومن هناك تطلعت نحو الموصل ومن ثم للتحكم ببغداد، وفي سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م عين الخليفة المكتفي أبا الهيجاء الحمداني والياً على الموصل، واهتم أبو الهيجاء بقضايا الصراعات في بغداد، وأناب عنه ابنه الأكبر الحسن ـ ناصر الدولة فيما بعد ـ في حكم الموصل، وبعد وفاة أبي الهيجاء صار الحسن أميراً على الموصل، وهو المؤسس الفعلي لحكم الدولة الحمدانية، ومع ذلك انشغل ـ مثله مثل أبيه ـ بمشاكل بغداد، يساعده أخوه الأصغر علي ـ سيف الدولة ـ، وقد تسلم لوقت قصير إمرة الأمراء في بغداد، ثم ارغم على ترك بغداد والعودة إلى الموصل، وذلك من قبل الأسرة البويهية، لابل أكثر من هذا انتزع البويهيون منه الموصل لمدة قصيرة، فلجأ الى حلب، التي كانت قد صارت قاعدة حكم أسرة حمدانية أخرى اسسها سيف الدولة، وفي سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م عزل معز الدولة البويهي ناصر الدولة من إمرة الموصل، وعين مكانه ابنه أبو تغلب فضل الله، وضيق

أبو تغلب على أبيه، وسجنه سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م في إحدى القلاع، وظل ناصر الدولة في السجن حتى تاريخ وفاته سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م.

وكان أبو تغلب قد لقب نفسه بالغضنفر، وبعد وفاة ناصر الدولة قام صراع حاد بين أولاده، أضعف قوة الأسرة الحمدانية، الأمر الذي استغلته الدولة البويهية حيث احتلت الموصل سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، وفي الوقت نفسه كان الأكراد قد تحركوا في شمالي الجزيرة بقيادة زعيم لهم اسمه باذ، وتطلع باذ إلى احتلال الجزيرة ومن ثم الزحف على بغداد، غير أنه أخفق، فقد تصدت له قبائل عقيل وسواها، وبالفعل ورث العقيليون أملاك الحمدانيين في الموصل، كما ورث المروانيون ابناء أخت باذ ميافارقين وآمد حيث أسسوا الدولة المروانية[1].

ونظراً للارتباط العضوي ما بين مصر وبلاد الشام، فإنه عندما تأسس الحكم الاخشيدي في مصر، مدّ الاخشيد سلطانه على بلاد الشام، وفي سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م دخلت حلب في حوزة الدولة الاخشيدية، وعين الاخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلابي والياً على حلب، وفي هذه الآونة وصلت حشود جديدة من بداة شبه جزيرة العرب، مما نجم عنه فوضى شديدة، واضطربت أمور حلب، ففوض الخليفة الراضي حكم حلب لمحمد ابن رائق، وهكذا قام نزاع بين ابن رائق والاخشيد، والتجأ ابن رائق إلى ناصر الدولة الحمداني في الموصل ففقد حياته، وفوض ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة حكم حلب، فدخلها سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م.

ومن جديد تفجر الصراع بين الاخشيد وسيف الدولة على حلب

---

(١) أبو شجاع ـ ذيل تجارب الأمم ص ١٧٦ ـ ١٨٠. تاريخ الفارقي ص ٤٩ ـ ٥٨. الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ١٢١ ـ ١٢٢، ١٤٢ ـ ١٤٣.

وأرض الشام كلها، وأخيراً عقد اتفاق بين الطرفين في سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، سلم بموجبه الاخشيد حكم الشام الشمالي إلى سيف الدولة.

وأرسى سيف الدولة قواعد حكمه في حلب، وأقام بلاطاً رائعاً ضم كبار العلماء والشعراء، والتفت إلى الجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية التي كانت تعيش حقبة استفاقة وقدرة عسكرية هائلة، ولم يكن لدى سيف الدولة قاعدة قبلية تغلبية كبيرة فلجأ إلى شراء الغلمان وتجنيد بعض المرتزقة من الديلم والأتراك وسواهم، لهذا كانت السياسة المالية لسيف الدولة ثقيلة جداً، لكثرة نفقاته، ولذلك اضطربت أموره، وعجز عن الوقوف في وجه القوات البيزنطية سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، فاحتلت هذه القوات مدينة حلب، وألحقت بها دماراً مروعاً، الأمر الذي سبب مرضاً شديداً لسيف الدولة، فتوفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م في حلب، وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن فيها.

وآلت السلطة رسمياً في حلب إلى سعد الدولة شريف بن سيف الدولة، ورست فعلياً بيد حاجب أبيه قرعويه، وظلت الأمور مضطربة جداً، ودخلت حلب في ظل الحماية البيزنطية، وتمكنت هذه الامبراطورية من الاستيلاء على أنطاكية، وظلت حلب تتقلب بين أيدي غلمان سيف الدولة وأولادهم حتى زال حكم الدولة الحمدانية من الوجود رسمياً، وآلت السلطة هناك إلى صالح بن مرداس، مؤسس الدولة المرداسية[1].

---

(١) ابن ظافر الأزدي من ١١ ـ ٦٠ بغية الطلب ص ٧٦٠ ـ ٧٦١ ـ ٢٣٢٩ ـ ٢٣٣٢ ـ ٢٤٣٣ ـ ٢٤٣٧. زبدة الحلب حـ ١ من ١١١ ـ ١٨٧. العيون والحدائق جـ ٤ (ط. دمشق ١٩٧٣) ص ٤٨٤ ـ ٥٠٧. مسكويه جـ ٢ ص ١٦٢ ـ ٢١٤. الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ١٥٠ ـ ١٨٣ ـ ٢٠٨ ـ ٢٤٨ ـ ٢٧٣ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩١ ـ ٣١٢ ـ ٣١٨ ـ ٣٣٤ ـ ٣٥١ ـ ٣٥٥. تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ـ ط. طرابلس ١٩٩٠ ص ٣٨ ـ ٤٥ ـ ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٨٣ ـ ٩٠ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ١٠٣ ـ ١٠٦ ـ ١١٧ ـ ١٢٣ ـ ١٣٤ ـ ١٨٧ ـ ١٨٩ ـ ١٩١ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٧ ـ ٣٩١ ـ ٣٩٥. تاريخ ابن الأزرق الفارقي ص ٤٩ ـ ٥٣. المنتظم جـ٨ ص ٣٩٧٩ ـ ٤٠٠٧ ـ ٤٠٢٨ ـ ٤٠٦٧، وفي ديواني المتنبي وأبي فراس مادة جيدة، كذلك في يتيمة الدهر، كما جمع موريس كنار أخبار سيف الدولة، وكتب فيصل السامر اطروحة في جزئين عن الدولة الحمدانية. وعالج د. أحمد عدوان تاريخها في مجلد واحد ـ ط. طرابلس ليبيا ١٩٨١.

الدولة البويهية:

عرفت المنطقة المرتفعة التي وقعت إلى شمال الهضبة الإيرانية باسم بلاد الديلم وقد اتسم سكانها بالقسوة وحب القتال وبعد قيام الإسلام لم يفلح العرب في اقتحام هذه البلاد عسكرياً، ويحكي بأن الحجاج بن يوسف الثقفي خطط لفتح بلاد الديلم، فأمر بتصوير هذه البلاد، وزاره آنذاك وفد ديلمي، فعرض الحجاج الصورة عليه، ودعا الشعب الديلمي إلى الاستسلام قبل أن يجرد الجيوش ضدهم، ويدمرهم وأراضيهم، فنظر رجال الوفد الديلمي إلى الصورة وقالوا: «قد صدقوك عن بلادنا، هذه صورتها، غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو تكلفته»[1].

ومع مرور الوقت اعتنق الشعب الديلمي الإسلام سلمياً، وبذلك كان هذا الشعب بين أواخر شعوب المشرق التي دخلت في الإسلام، وفي الوقت نفسه بين أوائل الذين أعادوا تأكيد هويتهم الذاتية ضمن الإسلام سياسياً وعقائدياً: سياسياً بظهور أسر حاكمة مستقلة بين صفوفه، وعقائدياً من خلال تبني المذهب الزيدي الشيعي، فمنذ القرن الثامن التجأ عدد من أفراد البيت العلوي إلى جبال الديلم، وحافظ شعب الديلم على استقلاله، وفي القرن العاشر تمكن من مدّ نفوذه على العراق وايران، وذلك حين ظهرت الأسرة البويهية بين صفوفه.

وتنسب الأسرة البويهية إلى صياد فقير كان يعمل على شواطئ بحر قزوين، دخل أولاده: علي والحسن وأحمد في خدمة الدولة الزيارية

---

(١) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٢٨٣.

obeikandl.com

الديلمية، وقد علا نجمهم بعد مقتل مردوايج ابن زيار مؤسس هذه الدولة سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م[١].

وحقق أولاد بوية نجاحات كبيرة، واستفادوا من تردي أوضاع الخلافة العباسية، فتحرك سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م أحمد بن بويه نحو بغداد واستولى عليها، وإثر ذلك استقبله الخليفة المستكفي [٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/٩٤٤ ـ ٩٤٦م] فمنحه لقب معز الدولة، كما منح أخاه عليا لقب عماد الدولة، ولقب الحسن بركن الدولة، وبعد أيام من ذلك، خلع معز الدولة الخليفة المستكفي واستبدله بخليفة جديد[٢].

وكان معز الدولة شيعياً يستهدف إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وقد حكي عن اتصالات قامت بين البويهيين وبين الخلافة الفاطمية، والأخبار في مصادرنا غير كافية التفاصيل حول هذا الموضوع، هذا وانفرد كتاب اسمه «الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة» لأبي منصور عبد الله بن محمد بن الوليد البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م بإيراد أخبار حول هذا الموضوع، حيث تحدث عن رجل اسمه محمد بن القاسم بن القاسم بن الحسن من أبناء الإمام علي بن أبي طالب، عرف بلقب الشجري «كان معز الدولة كثير الإكرام له، وأقطعه ضياعاً كثيرة، وكان يحصّل له منها أموالاً كثيرة، وكان نازلاً على شاطئ دجلة بباب الشعير، وبلغ مبلغاً عظيماً في الرفعة، وكان يظهر من مخالفة الخلافة العباسية أمراً عظيماً... وكان معز الدولة يتخذه إماماً»[٣]، وأراد أن يبايعه بالخلافة، لكن بعض الأمور حالت دون ذلك، منها أن أصحابه

---

(١) المنتظم جـ ٨ ص ١٤٥ ـ ١٤٨. البويهيون والخلافة العباسية لابراهيم الكروي ص ٨١ ـ ١٠٥.

(٢) مسكوية جـ ٢ ص ٨١ ـ ٨٧. الكروي ص ١٧٨ ـ ١٨٣.

.The buwayhid Dynasty of Baghdad, b M. Kabir, calwtta 1964, PP 1-9

(٣) الحرز والمنعة ط. بيروت ١٩٨٨ ص ٣٣ ـ ٣٧.

حذروه من ردات فعل المسلمين في أقطار الأرض وقالوا له: «ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»[1].

وهكذا وقعت الخلافة العباسية السنية لأول مرة تحت تحكم شيعي، سيم خلاله الخلفاء سوء العذاب، وذاقوا مرارة المهانة، وفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م توفي معز الدولة وقبل وفاته كان قد عين ابنه عز الدولة بختيار ليخلفه في منصبه، وهذا يعني أن معز الدولة أسس أسرة وراثية حاكمة شاركت العباسيين السلطة، وتحكمت فيهم حتى مجيء السلاجقة وإزالتهم من السلطة وإحلال أنفسهم محلهم، ونحن لا يعنينا متابعة الحديث عن الدولة البويهية، أو بالحري الدول البويهية، ولعل الذي قدمناه يكفي للمعرفة[2].

ونعود الآن إلى سياق موضوعنا، فلدى سماع جعفر بن فلاح بالتحرك القرمطي مع حلفائه ضده، استدعى قواته من منطقة أنطاكية، وكان قائد هذه القوات غلام لجعفر اسمه فتوح، وكان عندما وافاه كتاب مولاه بالعودة إليه «شرع في شد أحماله، ونظر الناس إليه فجفلوا ورموا خيمهم، وأراقوا طعامهم، وأخذوا في السير مجدين إلى دمشق، فلما وافوا

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٩. الكروي ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) مسكوية جـ ٢ ص ٨٧ ـ ٤١٧. ذيل تجارب الأمم جـ ٣ ص ٥٣ ـ ١٧٥. المنتظم جـ ٨ ص ٢٢٩ ـ ٤٩١، جـ ٩ ص ٧ ـ ٣٤٧. حيث أوفى التفاصيل عن الحياة في بغداد في العصر البويهي. ابن خلدون جـ ٤ ص ٩٨٣ ـ ١٠٤٤. الكروي ص ١٨١ ـ ٢٠٦. Kabir PP 186-213.

جعفراً أراد أن يقاتل بهم القرامطة، فلم يقفوا، وطلب كل قوم موضعهم ولم يبالوا بالموكلين على الطرق»[1].

وقد يفيد هذا النص أن جعفر بن فلاح قد جند بعض القوات المحلية واستعان بها في حملته ضد أنطاكية، فلماذا فعل ذلك، وهل كانت قواته الكتامية غير كافية؟ وفوق هذا، من الواضح أن التحرك القرمطي احتاج إلى وقت طويل، أي ما يكفي لمراسلة جوهر في مصر وطلب مساعدته، فهل كان هناك شيئاً من هذا القبيل، أم أن القائد جوهر كان يؤثر التخلص من جعفر بن فلاح؟

ونقل ابن سعيد أن جعفر بن فلاح بعدما «صارت الشام بأسرها له، شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز بالمغرب سراً من جوهر، يذكر طاعته ويقع في جوهر، ويصف ما فتح الله للمعز على يده، فغضب المعز، ورأى من طريق السياسة ألا يستفسد جوهراً، ورد كتب ابن فلاح كما هي مختومة لم يفتحها، وكتب إليه: قد أخطأت الرأي لنفسك، نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب إليه، فما وصل منك إلينا على يده قرأناه، ولا تتجاوزه بعد، فلسنا نفعل لك ذلك الوجه الذي أردته، وإن كنت أهله عندنا، ولا كنا لنستفسد/جوهراً مع طاعته لنا.

فزاد غضب ابن فلاح، وانكشف ذلك لجوهر، وكان أكبر الأسباب أن لم يكتب جعفر بن فلاح يستدعي زيادة العساكر من جوهر بمصر، لأنه علم أنه لو كتب لما أنجده، فأقام جعفر على مكانه وحاله غير مكاتب لجوهر بشيء من أمره، حتى كان من أمره ما كان، وذلك أن عسكر القرمطي ـ

---

(١) الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣١١. الداعي إدريس جـ ٦ ص ١٦٧ ـ ١٦٨. تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤٥ ـ ١٤٦. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٦. ابن القلانسي ص ٢ ـ ٥. النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق لجمال الدين سرور ص ١٨ ـ ٢٨. الدشراوي ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

الحسن بن أحمد ضيق على دمشق، فخرج جعفر وهو عليل، فلما أيقن بالغلبة، أمر غلامه بأن يذبحه ويغيب رأسه في النهر، ففعل ذلك»[1].

وقبل الحديث عن مصير ابن فلاح، في الحقيقة يعدّ جوهر مسؤولاً ـ بحكم موقعة ـ ومتهماً بالتقصير لعدم مبادرته لنجدة ابن فلاح، وسنرى أن هذا التقصير قد كلفه الكثير في أيام كل من المعز وابنه العزيز من بعده.

وقدمت قوات جند القرامطة إلى الرحبة على الفرات ـ قرب الميادين حالياً في سورية ـ «فأكرمهم أبو تغلب، وبعث إلى الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي، المعروف بالأعصم كبيرهم يقول له: هذا شيء أردت أن أسير أنا فيه بنفسي، لكني مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلي خبرك، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك، ونادى في عسكره من أراد إلبسير من الجند الأخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد فلا اعتراض لنا عليه، وقد أذنا له في المسير، والعسكران واحد، فخرج إلى القرامطة كثير من الأخشيدية الذي كانوا بمصر وفلسطين ممن فر من جوهر ومن جعفر ابن فلاح»[2].

وزحف الحسن بن أحمد الأعصم مع القوات التي اجتمعت إليه ومعه، من الرحبة يريد دمشق، وبلغ ذلك جعفر بن فلاح، فجمع «خواصه واستشارهم فاتفقوا على أن يكون لقاء القرامطة في طرق البرية قبل أن يتمكنوا من العمارة، فخرج إليهم، ولقيهم فقاتلهم قتالاً كبيراً، فانهزم عنه عدة من أصحابه، فولى في عدة ممن معه، وركب القرامطة أقفيتهم وقد

---

(١) ابن سعيد ـ النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٠٤ ـ الخطط للمقريزي جـ ١ ص ٣٧٨. سرور ص ٢٧.

(٢) ابن القلانسي ص ١ ـ ٣. المقريزي اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٤. زكار ـ الموسوعة الشامية جـ ٢ ص ٣١٠ ـ ٣١٢. تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤٦. الداعي ادريس عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٧٢. سرور ص ٢٧. الدشراوي ص ٣٩٤.

تكاثرت العربان من كل ناحية، وصعد الغبار، فلم يعرف كبير من صغير ووجد جعفر قتيلاً لا يعرف له قاتل، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة، فامتلأت أيدي القرامطة بما احتووا عليه من المال والسلاح وغيره، وخرج محمد بن عصودا إلى جثة جعفر بن فلاح وهي مطروحة في الطريق، فأخذ رأسه وصلبه على حائط داره، وأراد بذلك أخذ ثأر أخيه اسحق بن عصودا، وملك القرامطة دمشق، وورد الخبر بذلك على جوهر القائد، فاستعد لحرب القرامطة»[1].

وكان الحسن بن أحمد الأعصم ماضي العزم، قوي الإرادة يقول الشعر، ولقصره كان «له كرسي من خشب يصعد عليه حتى يركب، وكان لا يركب من الخيل إلاّ أقواها وقال يرد على من عيّره بالقصر:

زعموا أنني قصير لعمري ... ما تكال الرجال بالقفزان

إنما المرء باللسان والقلـ ... ـب وهذا قلبي وهذا لساني»

وكان قد كتب إلى جعفر بن فلاح، وهو في طريقه إليه إلى دمشق:

الكتب معذرة والرسل مخبرة ... والحق متبع والخير موجود

والحرب ساكنة والخيل صافنة ... والسلم مبذُل والظل ممدود

فإن أنبتم فمقبول إنابتكم ... وإن أبيتم فهذا الكور مشدود

على ظهور المطايا أو يردن بنا ... دمشق والباب مهدم ومردود

إني امرؤ ليس من شأني ولا أربي ... طبل يرن ولا ناي ولا عود

ولا اعتكاف على خمر ومجمرة ... وذات دل لها دل وتفنيد

---

(١) مصادر الحاشية أعلاه والجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٦٥، ٥٩٦.

obeikandl.com

ولا أبيت بطين البطن من شبع ولي رفيق خميص البطن مجهود

ولا تسامت بي الدنيا إلى طمع يوماً ولا غرني فيها المواعيد

وعلى الرغم من جميع هذا الفخر، كان هذا الزعيم القرمطي يتعشق الغلمان، وكان أيضاً «يعشق أبا الدواد المفرج بن دغفل بن الجراح» زعيم قبائل طيء في فلسطين، وقد شغل المفرج هذا ومعه ابنه حسان دوراً حاسماً في محاولات القرمطي للاستيلاء على مصر، ويروي أن دغفل دخل يوماً على الحسن الأعصم «وفي وجهه أثر، فسأله عنه فقال: قبلتني الحمى، فأنشد:

قبلته الحمى ولي أتمنى قبلة منه من زمان طويل

حاجة طالما ترددت فيها قضيت للغريب قبل الخليل

وفيه يقول:

هل لنا فرجة إليك أيا ابن مفرج

لا مني فيك معشر هم إلى اللوم أحوج

كيف لم يسببهم عذارك وهو المدرج»[1]

ومن المرجح أن جعفر بن فلاح لاقى حتفه أثناء القتال، لا كما روى ابن سعيد، وأن القتال جرى في صحراء المزة خارج دمشق، أي على مقربة من الدكة حيث عسكر ابن فلاح مع رجاله.

وبعدما فرغ القرمطي من أمر دمشق، وبذلك وجه ضربة قاتلة إلى مشروع التوسع الفاطمي، قرر التوجه نحو فلسطين بقصد الزحف نحو مصر، ويفيد هذا أن الفاطميين فقدوا الآن بلاد الشام، وبات عليهم الدفاع

(١) زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٩٨ ـ ٦٠١.

obeikandl.com

عن وجودهم في مصر، ولعل مرد خسارة الفاطميين إلى إهمال جوهر، وأكثر من ذلك لسمات جعفر بن فلاح حيث كان «أحمقاً هذاراً، كثير الكلام، أكثر كلامه بغير طائل»[1].

وحين أوقع القرامطة بجعفر بن فلاح وقواته لم يوفروا دمشق، بل «نصبوا على أسوارها السلالم، وتعلقوا بها، وفتحوها قصداً، وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وشنعوا بأهلها»[2].

وبعدما فرغ القرامطة من أمر دمشق وملكوها «أمنوا من بقي من أهلها، وعزموا المسير إلى الرملة، واستولوا على جميع ما بينهما، فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا منها إلى يافا، فتحصنوا بها، وملك القرامطة الرملة بعد قتال شديد، وخسائر جمة، وبعد استتباب الأمر لهم قصدوا المسير إلى مصر، وتركوا على يافا من يحصرها».

وكان اسم القائد الفاطمي الذي حوصر في يافا سعادة بن حيان، وقد عهد القرمطي بحصاره إلى ظالم بن مرهوب العقيلي، ومعه أبي المنجا عبد الله بن علي بن منجا القرمطي، وزحف، يريد مصر، «ونزل خارج القاهرة بعين شمس لعشر بقين من صفر سنة إحدى وستين [نوفمبر ٩٧٢م]، ومعه خمسة عشر ألف جمل وبغل تحمل صناديق الأموال، وأواني الذهب والفضة، سوى التي تحمل الخيم والمضارب والبنود، وغير ذلك من الأثقال، وقد استعد جوهر لحربه، فالتحم القتال في يوم الجمعة أول ربيع الأول على باب القاهرة، وقتل من الفريقين وأسر جماعة، وباتوا ليلة السبت وأصبحوا متكافين، وغدوا يوم الأحد للقتال على باب الخندق،

---

(١) زكار الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣١٢ نقلاً عن المقفى للمقريزي.

(٢) ابن القلانسي ص ١. زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩. زكار الموسوعة الشامية جـ١ ص ٢٣٠.

فكانت وقائع شديدة قتل فيها من الفريقين عدد كبير، وانهزم الحسن، ونهب سواده ببركة الحاج، وأخذت صناديقه وكتبه، ومضى في الليل على طريق القلزم [السويس]، ونهبت بنو عقيل وبنو طيء كثيراً من سواده، وهو مشغول بالقتال فسار إلى الأحساء»[1].

ولم تطل إقامة الحسن الأعصم في الأحساء، بل عاد مسرعاً إلى بلاد الشام، وكانت دمشق والرملة قد بقيت بأيدي أصحابه يتقدمهم ظالم بن مرهوب العقيلي وعبد الله بن علي بن منجا القرمطي، وحين عاد جلب معه قوة بحرية، ليس من الواضح من أين حصل عليها ولا مقدارها، ومن المحتمل أنه حصل عليها من السواحل الشامية، وكانت هذه فاعلة إلى حد أن القائد جوهر بعث بنجدة بحرية لإمداد يافا وللتفريج عن المحاصرين فيها، وكان عدد مراكب جوهر خمسة عشر مركباً «فأرسل القرامطة مراكبهم إليها فأخذوا مراكب جوهر، ولم ينج منها غير مركبين، فغنمهما مراكب الروم»[2].

ونظراً لخطورة الأوضاع في مصر، وتزايد التهديد القادم من الشام، من أن القرمطي قد عزم على معاودة مهاجمة مصر براً وبحراً، أمام هذا الواقع قرر المعز لدين الله الفاطمي القدوم شخصياً إلى مصر ومباشرة الأعمال فيها، وكان قد فرغ من الإجراءات التي اتخذها لإسناد السلطة في إفريقية إلى زعيم صنهاجة، الأمر الذي تقدم الحديث عنه، ويفيد هذا أن المعز كان يعتقد أن خسارة مصر ستشكل تهديداً خطيراً لدولته

---

(١) ابن القلانسي ص ٣ ـ ٤. تاريخ الأنطاكي ص ١٤٦ ـ ١٤٧. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٨ ـ ١٣٠. الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، جـ ٢ ص ٥٦٦، ٥٩٥ ـ ٥٩٧. الموسوعة الشامية جـ١ ص ٣٣٠. سرور ص ٢٩ ـ ٣٠. الدشراوي ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥. عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

(٢) ابن القلانسي ص ٤. الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٦٦. الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١. الأنطاكي ص ١٤٧. الدشراوي ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

obeikandl.com

ومستقبلها، ولهذا حشد أكبر عدد من الرجال أمكنه حشده، واهتم أكثر بالأموال، فقد حمل معه من الأموال الكثير الكثير، مما يعتقد أنه أثر كثيراً على أوضاع المغرب، فقد ذكر الداعي أدريس القرشي: «وكان خروجه من المنصورية يوم الاثنين لثمان بقيت من شهر شعبان من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، بعد أن جمع من الأموال ما لم يسمع بملك جمع مثلها، ورحلها صحبته، وسار في هيبة عظيمة، وعدة وجنود جمة، وجيوش مستعدة، وقد أمر بالدنانير من الذهب فسبكت بسبائك، وطبع اسمه عليها، وجعل حمل كل جمل سبيكتين،..... وهاجر مع المعز لدين الله ع.م أولاد المهدي ع.م: أبو علي أحمد، وأبو طالب موسى ابنا عبد الله المهدي بالله، وأربع نسوة من بنات الإمام المهدي بالله، وكانت وفاتهم جميعاً في مصر، ومن أولاد الإمام القائم بأمر الله ع.م: جعفر، وعبد الجبار، ابنا محمد القائم بأمر الله ع.م، وأربع نسوة من بنات القائم بأمر الله، وكانت وفاتهم جميعاً بمصر، وأخوة المعز لدين الله ع.م: حيدرة، وهاشم ابنا إسماعيل المنصور بالله، وخمس بنات لهم، وبمصر كانت وفاتهم جميعاً، ومن أولاد أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م: عبد الله رضي الله عنه، وتميم الشاعر، والإمام نزار العزيز بالله، وعقيل أبناء الإمام معد المعز لدين الله، وهاجر معه كثير من أمرائه ودعاته، وأعيان دولته، وكان في الهجرة معه القاضي النعمان بن محمد (رضي) وجميع أولاده» كما كان بين المهاجرين الأستاذ جوذر.

وسار الموكب مرحلة تلو أخرى، حتى إذا كان على مقربة من برقة توفي جوذر ودفن هناك، ولم تقتصر خسارة المعز على جوذر، بل إنه خسر شاعره الأثير لديه ابن هانئ الأندلسي، فعندما قصد المعز مصر شيعه ابن هانئ، ثم رجع إلى المغرب فتجهز وحمل معه عياله ولحق به، ولما وصل إلى برقة أكرمه أهلها، فأقام عندهم عدة أيام، وجد في نهايتها

ميتاً، وقد اختلف في سبب موته وكيفيته، ومهما يكن كان ابن هانئ ما يزال شاباً لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره، وكان يلقب بمتنبي المغرب، وعندما بلغ المعز خبر وفاته حزن لذلك وقال: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك».

ولدى إلقاء نظرة على عدد أفراد الأسرة الفاطمية الذي ورد ذكرهم أعلاه، نجد أن هذه الأسرة كانت صغيرة جداً، قياساً على أي أسرة حاكمة أخرى مضى على وجودها في السلطة أكثر من نصف قرن من الزمان.

المهم وصل المعز وموكبه إلى الاسكندرية، فجلس قرب منارتها، وهناك استقبل من قبل الأشراف والقضاة والأعيان، ثم استأنف سفره نحو القاهرة، وكان أهل الفسطاط قد أعدوا له استقبالاً حافلاً، فلم يدخل إلى مدينتهم، وتوجه مباشرة إلى مدينته الجديدة[1]، وكان ذلك في شعبان من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ٩٧٣م.

وبدخول المعز إلى القاهرة انتهت المرحلة المغربية من حياة الخلافة الفاطمية، وعادت مصر من جديد، وبعد قرون مديدة لتكون قاعدة ملك عريض، ومن جديد لم تعد مصر ولا بلدان المشرق تابعة لإفريقية، بل عادت إفريقية ولاية، تابعة الآن للإدارة المركزية في مصر، يضاف إلى هذا أنه لأول مرة في التاريخ صارت جزيرة صقلية تابعة أيضاً لمصر.

ولا يعنينا هنا مباشرة الحديث عن الترتيبات التي أجراها المعز في مقر ملكه الجديد، ومع هذا ربما سوف نشير إلى بعض ذلك لدى الحديث

---

(١) عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٨٤ ـ ١٩٤. ديوان ابن هانئ ص ٦ ـ ٧. ابن القلانسي ص ٥. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٢ ـ ١٣٦. تاريخ الأنطاكي ص ١٤٨. سيرة جوذر ص ١٤٢ ـ ١٤٧. سرور ص ٣٠ ــ ٣١. الدشراوي ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

عن يعقوب ابن كلس وبعض المسائل الإدارية، ولاشك أن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر أحدث دوياً كبيراً في أرجاء المشرق الإسلامي، وهز أركان الخلافة العباسية بعنف شديد، ويكفينا أن نستشهد هنا بما قاله الشاعر الكبير الشريف الرضي آنذاك، وفي بغداد بالذات:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حمي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيدا النا ... س جميعاً محمد وعلي[1]

ومع أن الخلافة العباسية لم يكن بإمكانها القيام بأي عمل مباشر ضد الفاطميين، فإنها كانت قد تبنت سياسة جديدة تجاه القرامطة، اعتمدت على التهاون معهم، ومن ثم تقديم الدعم والتأييد لجهود زعيم القرامطة الحسن الأعصم، ففي سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م باتت استعدادات الأعصم كافية للتوجه نحو مصر، وقد راسله المعز برسالة طويلة محكمة الصياغة، قوية البيان[2]، لكن الأعصم لم يتأثر بها، وزحف بقواته حتى عين شمس، وشرع بحصار القاهرة، وانضمت إليه أعداد كبيرة من البداة العرب وسواهم، وكان أهم مسانديه حسان بن المفرج بن دغفل زعيم قبائل طيء في فلسطين، «ونظر المعز في أمره فإذا ليس له به طاقة، فأعمل فكرته ورويته في أمره، وشاور أهل الرأي من خاصته وجنده في أمره، فقالوا ليس فيه حيلة غير فلّ عسكره، وليس يقدر على فلّه إلا بابن جراح، فبذلوا له مائة ألف دينار على أن يفل لهم عسكره

(١) ديوان الشريف الرضي ط. دار صادر، بيروت جـ ٢ ص ٥٧٦.
(٢) نص هذه الرسالة في ملاحق هذه الرسالة.

فأجابهم إلى ذلك، ثم نظروا في كثرة المال فاستعظموه، فضربوا دنانير من صفر، وطلوها بالذهب وجعلوها في أكياس، وجعلوا في رأس كل كيس منها يسيراً من دنانير الذهب الخلاص، وحملوها إلى ثقة ابن جراح، وقد كانوا توثقوا منه وعاهدوه على الوفاء وترك الغدر إذا وصل المال إليه، فلما عرف وصول المال إليه عمل في فلّ عسكر القرمطي، وتقدم إلى أكثر أصحابه أن يتبعوه إذا تواقف العسكران، ونشبت الحرب.

فلما اشتد القتال ولى ابن جراح منهزماً وتبعه أصحابه، فكان في جمع كثيف، فلما نظر إليه القرمطي قد انهزم في عسكره بعد الاستظهار والقوة، تحير في أمره، ولزمه الثبات والمحاربة بعسكره، وأجهد نفسه في القتال حتى يتخلص، ولم يكن له بهم طاقةٌ، وكانوا قد أرهقوه بالحملات من كل جانب، وقد قويت نفوس المغاربة بانفلال ابن جراح، فخاف القرمطي على نفسه فانهزم، فأتبعوا أثره وطلبوا معسكره، فظفروا بمن فيه، وأسروا تقدير ألف وخمسمائة رجل، وانتهبوا سواده وما فيه، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة [٩٧٤].

ثم جردوا في طلب القرمطي القائد أبا محمود إبراهيم بن جعفر [بن فلاح] في عشرة آلاف رجل، فاتبعه وتثاقل في سيره خوفاً من رجوعه عليه، وتمّ القرمطي على حاله في انهزامه حتى نزل على أذرعات [درعا السورية] وأنفذ أبا المنجا في طائفة من الجند إلى دمشق، ونيته العود» حيث أنشد:

زعمت رجال الغرب أني هبتها ... فدمي إذا ما بينهم مطلول

يا مصر أن لم أسق أرضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النيل[1]

وبهزيمة القرمطي هذا طويت صفحة ثانية من صفحات الصراع القرمطي الفاطمي، وبقيت صفحة أخرى أشد قسوة سوف تطوى في أيام العزيز نزار بن المعز لدين الله وبعد وفاته، ذلك أن إبراهيم بن جعفر بن فلاح لم يحالفه التوفيق في الاستيلاء على دمشق، مثلما لم يحالف والده من قبل، وتدخلت قوى جديدة في الصراع، هذا الصراع الذي كان السبب الرئيسي لانتكاسة المشروع الفاطمي في المشرق، ومن ثم لبقاء الخلافة العباسية.

وقامت هذه الخلافة بشن حرب إعلامية مؤثرة ضد الفاطميين وطعنت بأنسابهم، وتناولت عقائدهم، ومما يثير الانتباه، أن الدعوة الإسماعيلية لم تحقق قفزة جديدة بعد التمركز في مصر، وبناء القاهرة، وتشييد الأزهر، وتظل هذه قضية جديرة بالاهتمام، والمقصود بذلك دور الأزهر في العصر الفاطمي وتاريخ الفكر الإسماعيلي في هذه المرحلة المديدة، آخذين بعين التقدير أن الذين نشطوا في الأزهر وفي ميادين الدعوة الإسماعيلية كانوا من غير المصريين، وفدوا إلى القاهرة من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وبشكل خاص من العالم الإيراني منه، الذي كانت خلفياته الدينية زرادشتية ومانوية ومزدكية وغير ذلك كثير...، وهي خلفيات غريبة على أرض مصر، يضاف إلى هذا أن القاهرة ظلت دار ملك السلطان فيها لغير المصريين، فجل الوزراء

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ص ٦ ـ ٨. تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٥٢. المقريزي اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٤٢ ـ ١٥٠، ١٨٨ ـ ٢٠٦. الداعي ادريس ـ عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠. زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١، جـ ٢ ص ٥٦٦ ـ ٥٩٨. زكار الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢. سرور ص ٣٠ ـ ٣٧.

والكتاب والقادة الذين صنعوا التاريخ الفاطمي لم يكونوا من المصريين، وفقط عندما بنى صلاح الدين قلعة القاهرة وجعلها دار الملك والسلطان، وكانت الفسطاط قد تعرضت قبيل ذلك بوقت قصير لحريق شبه كامل، صارت القاهرة مصرية السكان، وتحول الأزهر إلى مؤسسة مصرية، وقتذاك شغل دوره الفعال في تاريخ الإسلام.

obeikandl.com